من الحياة ! . .

الأخت هادية العطار

(هذه انطباعات وملاحظات وخواطر عفوية مما يمر بي وأنا أدرس في ديار الغرب وأعيش فيها مع أسرتي .. أسجلها بقلمي القاصر على الورق بسرعة وبساطة كما حصلت دون أي تكلف .. لعله يكون فيها فائدة وعبرة)

كثيراً ما أعجب عندما أسمع ما يقال ويدَّعى عن جمال الحياة الغربية وسلامتها ، وميزة الحرية الواسعة التي يتمتع بها الفرد رجلاً أو امرأة فيها ، أعجب لسطحية كل من يعتقد ذلك ، وإن كان له العذر أحياناً فيما يعتقد ، فلن يستطيع أن يرى حقيقة هذه الحياة إلاّ من عاش في الغرب ، وعاشر ناساً من الغربيين ، فهنالك يستطيع أن يرى من وراء الظاهر البراق الحقيقة المؤلمة المظلمة الخالية من البريق

ولقد صعقت حقاً عندما كنت أسير مرة مع رفيقة لي في ساحة المدرسة ، مبديةً لها سروري بأن (بابا) سيعود غداً من رحلة عمل ، وواصفةً فرحتي باجتماع أسرتنا الصغيرة من جديد ، رأيتها تسمع ذاهلةً عما حولها وهي تنظـــر في الفراغ ثم قالت لي بصوت عميق يرتجف من التأثر : إنني سأبوح لك بسر خاص لم أَبُح به لأحدٍ بعد .. لقد حسدتك –أول ما عرفتك وعرفت شيئاً عنك وعن أهلك– على الحياة السعيدة التي تعيشينها معهم وبينهم ، وعلـــى الرابطـــة المتينة والمحبة القوية والثقة المتبادلة التي تشدّ بعضكم إلى بعض . وصمتت رفيقتي لحظةً ثم عادت تقول : إنني لا أشـــعر بأي عاطفةٍ نحو أبي كما تشعرين نحو أبيك ، ولا بأي رابطةٍ خاصة به .. إنني في الحقيقة لا أعلم –ونحن نعيش حياتنا هذه في الغرب– إن كان الذي يدعونه أبي هو أبي حقاً أم هو إنسان غريب لا يجمعني به نسب

إنني أحس بفراغ عاطفي رهيب كلما فكرت في هذا الأمر ، ولا أستطيع أن أصور لك ما يسببه لي أحياناً مـــن الألم .

لقد صعقت حقاً عندما سمعت هذا الكلام .. وقد كنت أعرف كثيراً عن عواقب الحرية !! والحياة المتحللـــة في الغرب ، ولكنني لم أكن أتصور قط أنها قد وصلت إلى هذه الدرجة ، وأنها قد غدا لها مثل هذا الأثر المدمِّر

والحقيقة المؤلمة المظلمة للحياة الغربية لا تبدو من هذه الزاوية وحدها وفي هذا المجال وحده ، بل إنها لَتبدو للناظر المتعمق من كثيرٍ من الزوايا وفي كثيرٍ من المجالات ، بل إنها لَتتراءى له من خلال ما يقرأ ويشاهد أو يسمع في كل يوم وهو يمارس حياته الطبيعية العادية دون أن يفكر فيها أو يبحث عنها ويترصدها

كنا قبل أسبوعين في طريقنا بالسيارة إلى مدينة أخرى لحضور أحد اللقاءات ، وكنت أفكر في الطريق بــرفيقتي وأمثالها ، وأرثي لهم ، وأحمد الله عزَّ وجلَّ على نعمة الإسلام العظيم ، والحياة الإسلاميّة التي نعيش في ظلها الظليل ، ونستمتع بنظافتها وسلامتها وحنانها ودفئها وحلاوتها ونحن نعيش في جحيم الغرب .. وعلى ما نسعد به في أســرتنا من المحبة والتفاهم والتماسك والثقة والاحترام المتبادل مما هو أثر من آثار الإيمان والإسلام الذي جهلــه كــثيرٌ مــن الناس ..

واقترب موعد نشرة الأخبار ففتحنا (الراديو) فسمعنا طرفاً من برنامج خاص كان يذاع بمناسبة عيــد المــيلاد ، وكان هذا البرنامج يتضمن –كما بدا لنا– رسائلَ ونداءاتٍ من الأهل إلى الأبناء .. وحزّ في نفسي نــداءُ امــرأة في الثمانين من عمرها تتوسل فيه إلى ابنتها الشابة التي تخلَّت عنها وتركتها منذ سنوات ، ألاّ تنساها هذا العيــد ، وأن تبعث إليها برسالة على الأقل .. لقد حزَّ في نفسي هذا النداء وأمثاله مما لا يقل إيلاماً عنه ، فلــم أملــك نفــسي وانسكبت من عينيَّ الدموع ، وتمنيت لو أن الشابات المسلمات والشباب المسلمين المفتونين بالحياة الغربية من هــذه المآسي وأمثالها ، فيوفرون على أنفسهم وأمتهم وبلادهم هذه التجارب المريرة والمآسي المدمرة ، ولا يضيعون حياتهم ووقتهم –وما أثمن الوقت هذه الأيام– في الجري وراء السراب بل وراء الهلاك ، وأمامهم الطريق الواضح لخيري الدنيا والآخرة للفرد والجماعة .. أمامهم الإسلام

لقد دارت في رأسي وفي نفسي هذه الخواطر والمشاعر فرأيت من الأمانة أن أمسك القلم وأخط به لأبناء بلادنــا هذه السطور البسيطة الصادقة ، لعلها تنفتح بها العيون المغلقة على النور ، ويزداد بها الذين آمنوا ثباتاً علــى الحــق وبصيرةً به واطمئناناً إليه .